مراجعات في الكتب

د. عدنان حسين العوادي: **لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية**، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٥. ٣٦٣ صفحة + ٧٤ صفحة من المصادر والمراجع والفهارس.

يلاحظ في السنوات الأخيرة انصراف كثير من الباحثين الى دراسة لغة الادب العربي الحديث، ولغة الشعر خاصة. فقد اخذ كثير من النقاد، في كتبهم ومقالاتهم، يتناولون النص ذاته، بكل مقوماته اللغوية والفنية، باعتباره المعيار الاول في تقييم الشاعر وشعره. ولا يعني ذلك، بالضرورة، ان الابعاد الأخرى في الشعر، التاريخية والايديولوجية والشخصية، ليست ذات شأن، ولكنها ابعاد يمكن دراستها وتحليلها بمدى ما تتمثل في لغة القصيدة ذاتها وتنبثق عنها. واذ نتحدث عن لغة الشعر فلا يقصد بذلك معناها الضيق المحدود، بل هي تتشكل من المعجم الشعري ـ الخامة الاولية في القصيدة، والصياغة او مبنى الجمل والتراكيب، كما تضم ايضاً التشبيه والاستعارة او الصورة الشعرية عامة، وتوظيف الرمز والاسطورة، ثم هناك أخيراً الشكل الايقاعي من وزن وقافية والموسيق الشعرية عامّة.

الكرمل ــ ابحاث في اللغة والادب، العدد ٩ (١٩٨٨)

بين هذه الدراسات التي تناولت الشعر الحديث تبرز بشكل واضح عناية خاصة بالشعر العراقي المعاصر، ذلك ان هذا الشعر لفت اليه انظار النقاد والدارسين بعد الحرب العالمية الثانية، وفي الخمسينات خاصة، بما أحدثه من ثورة على التقاليد الشعرية المعروفة، بدءاً بتحطيم الشكل الايقاعي، الكلاسيكي والمقطوعي، وانتهاء بكل المقومات الفنية الأخرى للقصيدة. ثم كان انتقال هذا الشعر الجديد الى كل الاقطار العربية، وانفتاح القصيدة الجديدة على كل التيارات الفكرية والفنية العالمية، بحيث تخطى الشعر العربي في فترة قصيرة نسبياً عشرات السنين التي كانت تفصل الشعر العربي عن الشعر العالمي فكرياً وفنياً.

من هذه الدراسات، على سبيل المثال لا الحصر، كتاب الدكتور ابراهيم السامرائي **لغة الشعر بين جيلين** (بيروت، د. ت.). وهو دراسة رائدة بقلم باحث لغوي، ولكنه استطاع، بحسّه اللغوي واطلاعه الواسع على التراث العربي القديم، ان يشير الى صلة الشعر العراقي المعاصر بالتراث القديم من ناحية، والى بعض نواحي التجديد في المعجم الشعري والصياغة اساساً، من ناحية اخرى. وقد تناولت هذه الدراسة ابرز شعراء العراق من الكلاسيكيين الجدد ـ الكاظمي والشرقي والرصافي والجواهري (الجيل الاول)، ومن الشعراء المجددين السياب والبياتي والملائكة والحيدري (الجيل الثاني)، محاولة رصد القديم والجديد في النص الشعري لدى هؤلاء الشعراء جميعاً.

بالاضافة الى هذه الدراسة الرائدة يمكننا ان نضيف مثالا آخر هو كتاب **لغة الشعر العراقي المعاصر**، تأليف عمران خضير حميد الكبيسي (الكويت، ١٩٨٢). وهو دراسة جامعية عرض فيه المؤلف لمعجم الشعر العراقي بما فيه من تراثي من ناحية، وعناصر حديثة وعامية من ناحية اخرى، ثم تناول مصادر المعجم الحديث في الشعر متمثلة في الادب الشعبي والانواع الأدبية المختلفة ووسائل الاعلام الحديثة، وانتقل اخيراً الى بحث بعض الظواهر الفنية البارزة كالتكرار والتقابل والغموض وغيرها. ولا بدّ من الاشارة الى ان الدراسة تتناول، باستثناء شواهد معدودة من شعر الجواهري، نتاج الشعراء المجددين فيما بعد الحرب العالمية الثانية، وان كان عنوان الكتاب لغة الشعر العراقي **المعاصر**.

والكتاب الذي نحن بصدده هو ايضاً دراسة جامعية؛ انها رسالة دكتوراه قدمت الى كلية الآداب بجامعة بغداد، باشراف الدكتور رزوق فرج رزوق، وتتناول الشعر الكلاسيكي الجديد في العراق. ويلاحظ في عنوان الكتاب، كما في الكتاب السابق وابحاث اخرى كثيرة، الفوضى في استخدام مصطلحي «المعاصر» و«الحديث»، اذ كثيراً

ما يترددان باعتبارهما مصطلحين مترادفين، وكان احرى في رأينا، توخيّاً للدقة، التميز بين هذين المصطلحين، بحيث يدلّ «الشعر المعاصر» على كل ما كتب في عصرنا هذا من شعر، و«الشعر الحديث» على ما كتب بعد الحرب العالمية الثانية.

يتناول الفصل الاول من الكتاب ـ «تمهيد في لغة الشعر»، مقولات نظرية عامّة حول الشعر ومقوماته من خيال والفاظ ومجاز وايقاع.. والكاتب في هذا الفصل يحشد الشواهد الكثيرة من كتب النقد العربي والاجنبي (المترجم عادة) والآراء المختلفة في هذا المجال، منذ افلاطون حتى ادونيس، بحيث يبدو الفصل كله مجموعة من الشواهد يضيع خلالها موقف الناقد نفسه. ثم ينتقل في الفصل الثاني ـ «اساسيّات نظرية في لغة الشعر العربي»، الى النظر في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي حتى عصر الانحطاط، محاولا رصد اهم التحولات التي طرأت على الفن الشعري خلال هذه الحقبة الطويلة، معتمداً هنا أيضاً، على المراجع الكثيرة التي تناولت الشعر العربي القديم في عصوره المختلفة. ويشوب هذين الفصلين، بطبيعة الحال، التعميم الشديد، كما يبدوان منبتّين الى حد بعيد عن باقي فصول الدراسة، اذ قلما نجد اشارة الى هذه «المقدمات التمهيدية»، او اعتمادا عليها بعد ولوج الكاتب في صلب الموضوع. ولا يعني هذا اننا نعترض على «فصل تمهيدي» في هذه الدراسة او غيرها، ولكن بشرط ان يمهد الفصل للدراسة الاساسية، فيشكل مرتكزاً نظرياً او مدخلاً تاريخياً للنتائج التي سيتوصل اليها البحث. اما ان يكون التمهيد من مقتضيات الدراسة «الرسمية» وحسب، فلا نظن ان ذلك يثري الدراسة او يعزّز من منهجها ونتائجها.

اما الفصل الثالث فيمثل، في رأينا، التمهيد الحقيقي للدراسة، وفيه يعرض المؤلف للاوضاع السياسية والفكرية والاجتماعية التي سادت العراق في الفترة قيد الدرس، كما يتناول موقف الشعراء الفكري من هذه الاوضاع، مؤكداً بداية التغير والتجديد بتأثير الفكر التنويري الذي اخذ يصل العراق من تركيا، ومصر وسوريا خاصة، وذلك عن طريق المجلات والمؤلفات الصادرة في هذين المركزين الهامّين والسبّاقين الى الاتصال بالحضارة الغربية، والى التجديد في الفكر والادب وفي الشعر تبعاً لذلك.

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى لب الموضوع، وذلك من خلال النظر في شعر ستة من الشعراء العراقيين البارزين قبل الحرب العالمية الثانية، ويقوم بتقسيم هؤلاء الشعراء الى ثلاث مجموعات او «طبقات»، فيجعل كل اثنين منهما موضوعاً للدراسة في فصل مستقل، محاولا رصد اهم الخواص لكل طبقة واظهار الفرق بين الشاعر وزميله من الطبقة ذاتها.

هكذا يعرض المؤلف في الفصل الرابع الى لغة الشعر عند عبد المحسن الكاظمي (١٨٦٥-١٩٣٥) ومحمد رضا الشبيبي (١٨٨٨-١٩٦٦)، واصفاً الكاظمي بشاعر «الارتجال» والشبيبي بشاعر «الصنعة». وهو حين يحاول التميز بين هذين الشاعرين يرى ان الكاظمي يمثل «مستوى النقل والاحتذاء»، بينما يمثل الشبيبي «مستوى الانتقاء واحكام الصياغة»، كما يشير الى ان الشبيبي يتميز عن زميله في كون اغلب موضوعاته «ذات طابع فكري - اجتماعي» (ص ١٦٧). ولكنه يعود فيقرر في الصفحة ذاتها «ان كليهما ينزع منزعاً بدوياً ظاهراً، وان في كليهما صنعة بادية تشعر القارىء بصنعة العصور المتأخرة» معتمداً في حكمه هذا على السامرائي في الكتاب المذكور اعلاه. كذلك نراه يجمع بين الشاعرين حين يتناول لغة شعرهما بالتفصيل، مؤكداً ان كليهما يستخدمان اسماء المواضع القديمة في الجزيرة العربية، كما يرددان اسماء حيوانها ونباتها، ويكثران من ايراد الالفاظ والتراكيب القديمة المستقاة من التراث القديم، وخاصة القرآن والحديث، كما يكثر في قصائدهما غريب اللغة والتضمين (الاشارة الى قصائد قديمة) والمحسنات بكل انواعها. فهل يكفي تناول الشبيبي لبعض الموضوعات «الفكرية - الاجتماعية» لاعتباره مختلفاً عن زميله، بينما يؤكد المؤلف نفسه ان لغتهما الشعرية واحدة بكل مقوماتها لفظاً وصياغة؟

وفي الفصل الخامس يتناول المؤلف شاعرين آخرين هما: جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣-١٩٣٦) ومعروف الرصافي (١٨٧٥-١٩٤٥). ويميز المؤلف بحق، منذ البداية، بين هذين الشاعرين اللذين ولدا وعاشا في بغداد، عاصمة الدولة، وبين الشاعرين السابقين اللذين تربّيا في الكاظمية والنجف، في بيئة شيعية حيث «غلبه الطابع التقليدي»، ويخلص الى الحكم بان «الذائقة اللغوية للزهاوي والرصافي قد تفتحت، اساساً، على عربيّة مهجّنة وذات طبيعة نثرية عموماً (ص ٢٤٠). ومن هنا كان عنوان الفصل «اضطراب لغة الشعر بين التلفيق والسهولة»، فهناك الاساليب الموروثة، بل وغريب اللغة ايضاً من ناحية، والمادة الحديثة اليومية والعامية احياناً، من ناحية اخرى.

ورغم ان بعض محاولات «التجديد» تظهر في بعض قصائد الشاعرين، متمثلة في الموضوعات السياسية والاجتماعية والعلمية التي تناولاها، وفي «الشعر المرسل» الذي كتبه الزهاوي رغبة في التخلص من عبء القافية الموحدة، الاّ ان الناقد يقرر بحق انه كان في معظمه تجديداً موهوماً، ذلك ان القصيدة ظلت في اغلب الاحيان «تعتمد اللغة التقليدية، بمفرداتها واشكالها التعبيرية والايقاعيّة، اساساً في التعبير عن اي غرض شعري مهما كان معاصراً» (ص ٢٤٦).

في الفصل السادس والأخير يتناول المؤلف لغة الشعر عند علي الشرقي (١٨٨٩- ؟) ومحمد مهدي الجواهري(١٩٠٠-)، والشاعران كلاهما من النجف، بلد التراث والدين، بل ان نشأتهما ايضاً متقاربة وتجمع بينهما صلة القرابة، كما احسّ كلاهما «منذ وقت مبكر بالنزوع الى «التمرد» على كثير من المواضعات والافكار السائدة» (ص ٣١٥).

ورغم هذا الشبه في النشأة والموقف السياسي والفكري، ألا ان الجواهري يظل اقوى صلة بالتراث القديم والصياغة الكلاسيكية، بينما تلمح في شعر الشرقي بعض تأثيرات الشعر الرومانسي الواضحة، ومن هنا عنوان الفصل حول «اضطراب الهمس» عند الشرقي «ومهارة الجهد» عند الجواهري. ثم يتناول الفصل شعر الشرقي والجواهري، كلا على حدة، مفصلاً الموقف الفكري لكل منهما ومحلّلا موضوعات الشعر ومعجمه وصياغته وموسيقاه، من خلال الوقوف على القديم والحديث في هذه المجالات.

بهذا تنتهي الدراسة، وهي دراسة تفصيلية متأنية، يتجلّى من خلالها الجهد الكبير الذي بذله المؤلف والاطلاع الواسع على معظم المراجع التي تناولت شعر هذه الفترة في العراق. ولنا اخيراً بعض الملاحظات العامّة حول هذه الدراسة:

اولاً: لقد بالغ المؤلف، في رأينا، في اعتماده على المراجع وحشد الشواهد الكثيرة منها، سواء في ذلك ما يتعلق بالاحكام العامّة التي لا تحتاج في احيان كثيرة الى الشواهد والاثبات، او الاحكام الخاصة حول الشعراء ولغة شعرهم ومقوماتها الفنية، وكان احرى بالمؤلف في مواضع كثيرة، ان يعتمد النصوص ذاتها في اصدار احكامه وتقييمه، ثم يشير الى بعض المراجع التي توافق رأيه او الى مراجع اخرى تخالفه ليناقشها و يظهر صواب ما توصل اليه من نتائج. بكلمة اخرى: ان النصوص الشعرية يجب ان تشكل المتكأ الاول والاساسي في اصدار الاحكام وتحديد الخواص في دراسة لغة الشعر، ولكنها في هذه الدراسة تأتي في المقام الثاني، دعماً لآراء النقاد والدارسين الكثيرة المبثوثة في كل صفحة وفقرة من الكتاب.

ثانياً: يشير المؤلف في ملاحظات عابرة الى اختلاف نشأة الشعراء بعضهم عن بعض، وخاصة من نشأ منهم في بغداد العاصمة ومن نشأ في المراكز الشيعية الهامة مثل النجف وكربلاء والكاظمية. ولكننا كنا نتوقع من المؤلف، في دراسة متخصصة كهذه، التوسع والتعمق في هذا المجال. ان هذه المسألة، في رأينا، هي مسألة هامّة في فهم الشعر العراقي المعاصر، بحيث يمكن الاشارة الى مركزين او «مدرستين» متميزتين في الشعر الكلاسيكي الجديد في العراق. كما نفتقد في الدراسة ايضاً تفصيل الصلة بين «المدرسة النجفية»

المعاصرة والتراث الشيعي كله، شعراً ونثراً، وهي صلة هامّة ووثيقة، دون شك، اشار اليها الدكتور السامرائي اشارة سريعة ايضاً في كتابه المذكور، فلعلّ الدراسة المتقصية العميقة تبيّن لنا عاملاً من اهم العوامل التي ميّزت الشعر الكلاسيكي الجديد في العراق عنه في مصر وسوريا.

ثالثاً: ينتصب الجواهري بين هؤلاء الشعراء ظاهرة فريدة تستحق النظر طويلا، فلا يكفي في هذا المجال الحكم بان الجواهري «استخدم كل اساليب البلاغة العربية [...] لكنه استطاع ان يحيل ذلك كله الى مادة جديدة منصهرة في اطار عصر الشاعر ومتغيراته» (ص ٣٥٥)، ثم الانصراف الى تقصّي مقوماته الفنية الخاصة في الالفاظ والتوكيد والتجانس الصوتي والتكرار.. كنا نوّد ان يبين لنا المؤلف كيف استطاع الجواهري بصياغته الكلاسيكية الفخمة ان يتناول اكثر القضايا السياسية والاجتماعية تعقيداً، وان يتناول بالتفصيل «الصورة الشعرية» لدى الجواهري: ما القديم منها وما الجديد، وما هي «الصورة المولدة» التي استقاها الشاعر من القديم ولكنه اعمل فيها حسّه المعاصر بحيث تبدو «جديدة». ان بحثاً متأنياً كهذا يستطيع الكشف عن «سرّ» هذه الشاعرية الفذة التي شكلت، بدون شك، قمة الشعر الكلاسيكي الجديد في العراق، وفي الوقت ذاته «تمهيداً» للشعر الجديد فيما بعد الحرب العالمية الثانية.

سليمان جبران